قدري حافظ طوقان داعية الحضارة الإسلامية

بقلم: د. محمد رجب البيومي
مصر

أعجب بالفكر المخلص ذي الشخصية القوية، والروح الملتهبة، يعتنق فكرة من الأفكار الصحيحة، ويعمل على تحقيقها باذلاً كل جهوده في الدعوة إليها. وقد يضطر إلى تكرار ما يقول بتعدد أماكن الإعلام في ندوات وصحافة وتأليف، وقد يجد المعارضة المتهكمة من قوم يسوؤهم أن يعمل الناس وهم راكدون، ولكنه يواصل الدعوة المخلصة، وقد يوفقه الله فينجح، وقد تقوم الحوائل دون غايته الحميدة، فلا يحقق ما يأمل، وفي الحالين يكون المكافح بطلا في الميدان كبيراً.

لقد جاهد المصلح الكبير محمود العيون لمحاربة البغاء الرسمي في مصر على مدى ربع قرن، لا يهدأ في دعوته كتابة في الصحف، ومحاضرة في الندوات، وجمعاً لتوقيعات الكبار ممن يميلون إلى فكرته، وقد لاقى من تهكم بعض المغرضين ما لا طاقة له باحتماله من الأراجيف، إذ تعدوا كل منطق، ليلصقوا بالرجل ما لا يليق، ولكنه انتصر في النهاية وتحققت دعوته فمسحت مصر عن وجهها هذا العار الشنيع.

وقد جاهد الدكتور أحمد غلوش سبعين عاما متصلة في محاربة الخمور والمسكرات، وأصدر الكتب على نفقته وسافر إلى المؤتمرات الأجنبية في أوربا مما ادخره من قوته، وأقام فروعا لجمعية منع المسكرات في عدة عواصم من المدن، ولقي من تهكم الصور الكاريكاتورية وتظرف الخبثاء ممن يولعون بالسكر والإدمان ما لم يثنه عن عزمه، وزاد الأمر إلى الافتراء الصارخ بأن الدكتور غلوش يشرب الخمر ليعرف أضرارها، ويتكلم عن تجربة.. وقد مات الرجل في سن التسعين، ولم يصل إلى تحريم الخمر بقانون مصري، ولكنه بذل جهده قدر ما استطاع.

أسوق هذين المثلين لأتقدم بمثل ثالث هو المفكر الكبير الأستاذ حافظ قدري طوقان، فقد قرأ تاريخاً مشوها للثقافة الإسلامية، والنهضة العلمية عند العرب، قرأه بأقلام أجنبية، ثم قرأه مترجماً ومقرظا بأقلام عربية، فآلى على نفسه أن يبذل كل وقته في تصحيح أكبر خطأ يتعلق بالحضارة الإسلامية والنهضة العربية، وامتشق القلم كاتباً، وعلا المنبر متحدثا، وملأ الصحف العلمية والأدبية باحثاً ليثبت للناس جميعاً أن الحضارة العربية أضافت الكثير إلى التراث الإنساني، وأنها ساعدت على التقدم الأوربي حين انتقلت أسفارها إلى ربوع الغرب، وأن المنصفين من باحثي الغرب يعرفون ذلك، ويقررونه في حيدة وإنصاف، وإن كانوا قلة قليلة جوار كثرة كاثرة من المتعصبين. فعل الأستاذ ذلك كله جاهداً دائباً، حتى عرف بهذا الاتجاه، فدعته الهيئات العلمية للمحاضرة والمناظرة، وسار له ذكر طائر في معرفة خصائص الحضارة العربية وأعلامها المرموقين في شتى نواحي المعارف المختلفة. ولا أنكر أن نفراً من الفضلاء قد كتبوا في بعض ماعناه الأستاذ قدري حافظ طوقان، ولكنه الصبر الجميل المتصل على دراية بشتى العلوم المختلفة دون الوقوف عند فرع واحد، هذا الصبر الدائب الجميل كان من خط الأستاذ طوقان، وهو في بحوثه العلمية لا ينكر جهود من أشاروا إلى بعض مظاهر التفوق العلمي في فرع من فروع المعرفة كالدكتور محمد خليل عبدالخالق والدكتور مصطفى مشرفة والدكتور مصطفى نظيف من أساتذة الجامعة المصرية ذوي البحث الجاد، والنظر العلمي النزيه، وقد جمع آراء هؤلاء وأمثالهم لتكون سنداً قوياً لاتجاهه، ولكنه مع هذا بقي العلم الشامخ في هذا المجال.

يقول الدكتور العالم عبدالحليم منتصر عن الأستاذ طوقان(١): «لقد ولد عالمنا في مدينة نابلس بفلسطين سنة ١٩١٠م، وتخرج في الجامعة الأمريكية، ببيروت سنة ١٩٢٩م، متخصصا في العلوم الرياضية، ومثل بلاده في أكثر من خمسة وعشرين مؤتمراً علمياً وثقافياً وإذاعياً في البلاد

العربية والغربية، في سويسرا والهند وباكستان وإيطاليا وأسبانيا ومصر ولبنان والمغرب العربي والكويت والعراق ودمشق، وهو عضو في المجمع العلمي العربي بدمشق، والمجمع العلمي لدول البحر المتوسط بإيطاليا، ورئيس الجمعية الأردنية للعلوم، وعضو اللجنة القومية، وعضو مجلس الاتحاد العلمي العربي بالقاهرة، وعضو مجلس أمناء الجامعة الأردنية، وعضو مجمع اللغة العربية بالقاهرة، وانتخب نائباً للرئيس في المؤتمرات العلمية العربية جميعاً، ومؤتمر المفكرين في لاهور، ومؤتمر التعريب في الرباط».

عباس محمود العقاد

وقد تولى وزارة الخارجية الأردنية زمناً، وتركها لأعماله العلمية.

وبمراجعة ما ذكره الدكتور عبدالحليم منتصر في السطور السابقة نجد أن المجامع العربية في الشرق الأوسط والغرب قد عرفت فضل الرجل الكبير، وعملت على أن يكون عضواً عاملا بها، وهذه التزكيات المتشعبة المتنوعة تدل على إجماع شرقي وغربي على مكانة قدري، وما يتاح على يديه من العطاء؛ لأن المجاملة الشخصية لو تحققت عند مجمع واحد تكون ظاهر الشذوذ، ويحذر الآخرون الوقوع في مثلها. فإذا حدث هذا الإجماع الباهر على الانتفاع العلمي من جهود البحاثة الكبير فقد قطعت جهيزة قول كل خطيب، هذه من ناحية، أما الناحية الثانية وهي أهم من الأولى فهي قيام الباحث بمحاضراته العلمية في المؤتمرات الغربية بسويسرا وأسبانيا وإيطاليا والهند، ففي هذه المؤتمرات يوجد علماء ينكرون فضل العرب في كل شيء، ولهم بحوث مستفيضة يحاولون تكرارها، وكلهم ينقلون ما قيل في هذا الصدد ويزيدون عليه ما يرونه دعامة لهذا الإنكار، فحين يقوم الأستاذ قدري بين هؤلاء ليعصف بأفكارهم ذات التأثل الراسخ بالتكرار فإنه ليس عالما فقط، ولكنه عالم بطل يجابه الإعصار الكاسح متحديا، يجابهه وهو يعرف سلفاً أنه لم يحضر إلى هذه المؤتمرات الأجنبية ليسير في طريق ممهد بالزهر والريحان، شأنه في ذلك شأن مؤتمرات الدول العربية في دمشق والقاهرة والمغرب ولبنان والعراق، إنما حضر هذه المؤتمرات ليصحح أخطاء ينادي بها ذوو التعصب، وأقول: ذوو التعصب عن قصد، لأن الباحث الخالي من الغرض عليه ألا ينكر الحقائق التاريخية إذا قدمت إليه في سياقها العلمي الرصين، وإذا رأى بها بعض الأخطاء بَادَرَ بالتعبير عن وجهة نظره ليجد الرد المقابل، وهنا يتضح وجه الحق دون لجاج!. ولكن هؤلاء الجاحدين للحضارة العربية في أرقى عصور ازدهارها يجعلون كلامهم عن أوربا شاملاً لما في الدول العربية.

فإذا اعترفوا بأن لديهم فترة يسمونها فترة العصور الوسطى بأوربا، وهي الفترة التي حاربت فيها الكنيسة الأوربية حقائق العلم بكل سلاح، وأصرت على إعدام الكتب والمؤلفين معاً حين يخرجون عن مقررات الكنيسة، فلتعلموا أن هذه الفترة لا وجود لها في دول الإسلام، ففي العصور الوسطى الأوربية التي وسمت بالرجعية والجمود كان العالم الإسلامي يزدهر بثلاث حضارات رائعة ابتدعها ثلاث خلافات إسلامية في بغداد والقاهرة والأندلس، وفي هذا العصر المزدهر سبق العلم الإسلامي بفكره المتقد، واستقلاله الحر إلى فتوحات علمية في شتى أنواع المعرفة الإنسانية، وظهر من أعلام الفكر الإسلامي من كانوا حملة النور في كل اتجاه، وبآثارهم الرائعة استطاعت أوربا أن تتلمس الطريق.

وللقوم في تأكيد شبهاتهم محاولات تتشح بثياب الفكرة إذ يزعمون - كما نادى رينان - بأن الجنس السامي الذي استطاع أن يطبع ما ابتدعه من الأديان بطابع القوة في أسمى درجاتها، لم يثمر أدنى بحث فلسفي خاص، وما كانت الفلسفة تظهر عند الساميين إلا اقتباساً صرفا تقليديا جديبا للفلسفة اليونانية» أو كما قال ألفريد جيوم في كتاب «تراث الإسلام»(٢): إنا لنرى في الأدب الغربي بين الحين والحين إشارة إلى ما يطلقون عليه اسم الفلسفة العربية، كما نرى طائفة من كتاب الغرب تذهب إلى أن الفلسفة المسماة بهذا الاسم ليست إلا خليطاً من آراء القدماء لا تجانس بين مواده المتنوعة، قد ترك ليتفاعل وينضج، فهم منتهون إلى أنه ليس هناك شيء اسمه الفلسفة العربية، وإلى أن الشعوب الناطقة بالضاد لم تفعل شيئا أكثر من أنها استولت على الفلسفة اليونانية التي كانت شائعة بين المسيحيين من أهل سوريا، والمثقفين من أهل حرّان الوثنيين، ثم أضافت إليها بعض عناصر استمدتها من فارس والهند».

هذا بعض ما يتردد بشأن الفلسفة أما العلوم التجريبية، فنصيب العرب من النكران والجحود في ميدانها الآهل لم يكن بأقل من نصيبهم في الفلسفة والإلهيات. وإذن فالبلاء ليس بواحد، وهذا ما أدركه الأستاذ قدري طوقان من حين جعل

رسالته العلمية في الحياة هدم هذه الأباطيل بما تأكد من حقائق التاريخ، وهو جهد ينوء به غير أولي العزم، ويزيد في فداحته أن الأستاذ طوقان يجد من كتاب المسلمين أنفسهم، من يشايعون المستشرقين بلا هدى ولا كتاب منير، وقد غبر بنا زمن - لا ردّه الله - كان التباهي باعتناق آراء هؤلاء الجحدة مدعاة لافتخار متعال، أذكر أن الأستاذ الكبير عباس محمود العقاد قد وضع كتابا يوضح فيه أثر الشرق في الحضارة اليونانية، والعقاد باحث عميق الغور، ومجاول تخشع له الأصوات، وقد جاء ذكر هذا الكتاب أمام واحد من هؤلاء، فصاح وهل قرأ العقاد اليونانية حتى ينمق هذه الأكاذيب؟!.

قلت في أدب - لأن المتكلم كان بمنزلة أستاذي - وهل قرأت أنت اليونانية حتى تعرف أكان العقاد صائباً أم غير صائب؟ قال في انفعال: قرأت الترجمات المنقولة عنها فقلت: وهل تفوت هذه الترجمات أكبر قارئ مثقف في الشرق العربي ولم تفتك؟! فآثر السكوت!

لقد تعددت جهات النضال لدى الأستاذ قدري، وبقراءة أسماء كتبه الرائعة في هذا الحقل نقف على جهد حافل مشهود، فقد ألف كتبا مجيدة تحت عناوين: تراث العرب العلمي، نواح مجيدة من الثقافة الإسلامية، الكون العجيب، الأسلوب العلمي عند العرب، بين العلم والأدب، العيون في العلم، الخالدون العرب، بين البقاء والفناء (في القنبلة الذرية)، النزعة العلمية في التراث العربي، العلوم عند العرب، ابن حمزة والتمهيد إلى اللوغارتمات، مقام العقل عند العرب، النزعة الإنسانية في التراث العربي، أكوان في كون.

هذا في مجال الفكرة العامة التي سيطرت على اتجاهه، وهناك كتب أخرى مثل: جمال الدين الأفغاني، وعي المستقبل، بعد النكبة ، بحوث عن مأساة فلسطين، ولا أستطيع أن أقف عندها جميعاً، ولكن سأختار ما يرسم الصورة العلمية لفكر الباحث الكبير مما أراه مسعفا بما أريد.

كان بحث (الأثر العلمي للحضارة الإسلامية وأعظم علمائها) من أوائل ما كتبه الأستاذ قدري طوقان خاصا باتجاهه العلمي، ويظهر أن مجلة المقتطف قد حددت له عدد الصفحات، لأنه كان مركزاً تركيزاً يحتاج إلى بسط ثان، فقد ابتدأه مصرحا بأن العلم ليس وقفا على أمة من الأمم أو شعب من الشعوب، بل هو مشاع يمكن لمن يجد ويجتهد أن يحصل عليه، وأن يزيد فيه إن كان من ذوي العقليات الخصبة، وقديماً اشتغل البابليون والمصريون والفينيقيون وغيرهم ببعض العلوم فبرعوا فيها، ووضعوا أساسها، ثم انتقلت العلوم إلى اليونان وكان فيهم عقليات جبارة استطاعت أن تنتج وتبدع، فقد كان لهم باع طويلة في كثير منها، وفي بعضها بلغوا الذروة. وجاء من بعدهم أمم أخرى أخذت ما أمكنها منهم، واشتغلت به، وقامت بدورها في المساهمة في بناء المدنية، وبينما كانت نجوم المدنيات القديمة آخذة في الأفول، ظهر العرب فدرسوا مآثر الأمم التي سبقتهم، و اطلعوا على تراث السالفين فكونوا من ذلك حضارة حافلة بالمآثر والمفاخر، قامت على قرائح خصبة عززتها العناية الكبيرة والتشجيع العظيم والرعاية الوافرة التي كانت تظهر من الخلفاء والأمراء وذوي النفوذ في حاضرة الخلافة وحواضر الإمارات المستقلة، لقد كان للعرب تأثير فعال في مصر والشام والعراق، وجميع بلاد إفريقيا الشمالية، إذ عربوها ونقلوا إليها ديانتهم وعاداتهم، وأصبحت عربية قلبا وقالبا. أما في البلاد الأخرى فقد كان تأثيرهم الديني يختلف كثرة وقلة، ففي أوربا كان تأثيرهم الديني ضعيفاً، وكذلك كان تأثيرهم في اللغة، أما التأثير في العقول والحياة فكان عظيماً جداً.

هذا ما قاله الأستاذ في مطلع حديثه، وهو قول منصف يحمده قارئه المحايد، إذ لم ينكر فضل الشعوب المتقدمة التي قطعت شوطاً حميدا في ركب الحضارة حتى انتهت إلى اليونان، فوجدت عقولا فذة استطاعت أن تنتج وتبدع، حتى بلغت الذروة في بعض العلوم، ثم انتقلت كتبهم إلى العرب فقرؤوها، وانتفعوا كما انتفع اليونان من سالفيهم، وزادوا فيها ما أصبح أثره ملموسا للمشاهد!.

وهذا الأثر هو الذي مضت صفحات البحث في جلائه في كل فرع من فروع الدراسات، وقد بدأ بالأثر العلمي للحضارة الإسلامية في التاريخ والجغرافية، فأشار إلى أن كتاب «كشف الظنون» قد تحدث عن (١٣٠٠) كتاب خاص بالتاريخ وحده،

ومنها ما هو مرتب أحسن ترتيب باعتبار السنين كالطبري وابن الأثير وأبي الفداء، أو باعتبار الأمم كالمسعودي والفخري وابن خلدون صاحب المقدمة فيه، ولم ينسج أحد على منوالها حتى علماء اليونان والرومان وغيرهم، فهي فتح يعد من أعظم ثمرات التفكير البشري.

وفي حديث الباحث عن الجغرافية ذكر أن العرب صححوا كثيراً من أغاليط بطليموس، وقد عرفوا الصين، وتوغلوا فيها، وفي أفريقيا ورسموا خرائط غريبة في بابها، إذ إن العرب أول من وضعوا أصول الرسم على سطح الكرة، وأول من أوجد بطريقة علمية طول درجة من خط نصف النهار. وأخذ يعدد أسماء الجغرافيين من أمثال ياقوت وأبي الفداء الذي ترجم كتابه إلى اللاتينية واحتذاه الكثيرون، حتى ظهر الإدريسي، فكان أثره أكبر وأخطر، لأن كتابه «نزهة المشتاق» قد ألفه لروجر ملك صقلية، ورتبه على الأقاليم والأقطار السبعة، وعمل لروجر خارطة على كرة مسطحة من الفضة رسم عليها الأقاليم والأقطار التي كانت معروفة في زمانه، وقد رسم الأوربيون خرائط مماثلة للخرائط العربية في عصر الإحياء فكان ذلك شاهد تلمذة لا ينكر.

ووالى الأستاذ حديثه عن التقدم الحضاري للعرب في مجالات الطب والكيمياء والصيدلة والنبات والطبيعة والعلوم الرياضية. وحديث يشمل هذا الاتجاه يضيق به بحث مركز في مجلة المقتطف لا يتجاوز سبعين صفحة، وقد استجاب لرغبة الإيجاز، على أن يتولى بسط هذا الإيجاز فيما يلي من آثاره، وقد فعل حقاً. ولكني لاحظت أنه مع هذا التركيز قد اضطر إلى نوع من التكرار رآه مما لابد منه، لأنه تحدث في الفصول الأول عن العلوم، وجاء حديث العلماء مندمجاً في تيار البحث العلمي، ثم أفرد باباً لهؤلاء يتحدث عن كل علم على انفراد، فيعيد ما سبق أن ألم إليه ببعض التفصيل، وكنت أوثر ألا يحدث هذا التكرار، بل نتحدث عن العَلَم من هؤلاء خلال نظرياته بنوع كثير من الإسهاب، ونشير في الهامش إلى ما لابد من مراجع تاريخه، ويمضي البحث هكذا على وجهه، فلا يشعر القارئ أنه في التراجم الأخيرة يلمّ بأشياء قد وعاها من قبل. وهذا منهج ارتضاه بعض مؤرخي الأدب من قبل، فهم يتحدثون مثلاً عن الشعر في عصر من عصوره فيسهبون في اختيار الأمثلة الأدبية، ويلمّون بحيوات المبدعين مشيرين إلى اتجاهم، ثم يفردون أبواباً خاصة لتراجمهم بعدما أشاروا إليه من آثارهم وأعمالهم.

وقد بدأ الأستاذ قدري حديثه عن الطب والكيمياء بقول الدكتور سارطون: إن بعض الغربيين الذين يجربون أن يستخفوا بما أسداه الشرق إلى الغرب يصرحون بأن العرب والمسلمين نقلوا العلوم القديمة، ولم يضيفوا إليها شيئاً، وهذا الرأي خطأ، لأنه لو لم تنقل إلينا كنوز الحكمة اليونانية مع إضافات العرب الهامة لتوقف سير المدنية بضعة قرون، وقد جدت آراء كثيرة بعد سارطون تؤكد ما قاله بالدليل، فانتصر المنصفون من الأوربيين للحقيقة العلمية غير عابئين بجحود المنكرين.

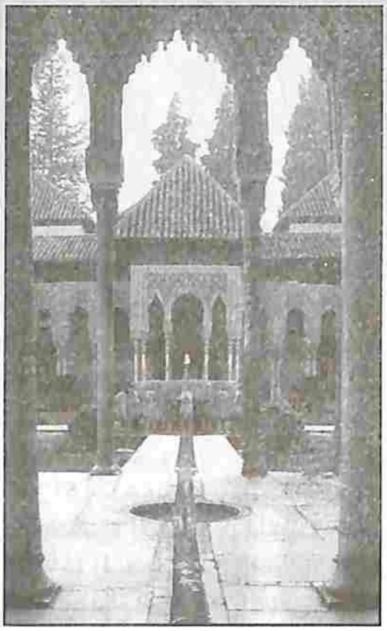

وقد يظن الذين يطالعون هذه البحوث بعد ستين عاماً من كتابتها أن الأستاذ قدري يتحدث عن مسلمات، لأن تاريخ النهضة العلمية للعرب قد وجد نصيبا من التأليف والتدريس بالجامعات منذ ثلاثين عاما، حتى أصبحت حقائق ذات اشتهار، ولكن الراصد للحركة التأليفية في تواريخ العلوم العربية، يعلم أن الأستاذ قدري كان أحد رواد هذه البحوث، وكان الحديث عنها جديدا كل الجدة حين ظهرت مجلات المقتطف والسياسة والرسالة حافلة ببحوثه الرائدة، بل إن الرجل كان يكمل النقص فيما كتب إذا بدا له الجديد، فقد كتب مقالا في المقتطف عن البيروني أحاط ببعض آثاره، ووجه الأنظار إلى اعتراف الباحثين في جامعات أوربا بجهوده العلمية التي كانت خطوة كبيرة في طريق الكشف العلمي، ثم كتب بعد عامين بحثا في الرسالة يقول: إنه نسي أن يقول: إن للرجل مؤلفات لم يعثر عليها، وقد قرأ اليوم مخطوطات تثبت نشاط الرجل في عدّة ميادين، ثم أعقب ذلك بمقال ثالث بعد عامين يقول فيه: لقد ظهرت قائمة بأسماء كتب من مؤلفات البيروني تثبت عدم اقتصاره على البحوث العلمية، بل تمتد إلى مسائل اللغة والأدب والتاريخ، ونقل أسماء الكتب الأدبية المعزوة إلى البيروني، وقد يجيء باحث - كما حصل فعلا - فيكتب مقالا عن البيروني يجمع فيه

ما نشره الأستاذ طوقان في مقالاته الثلاث بالمقتطف والرسالة في مدى سبع سنوات، فجمع ذلك في مقال واحد متحدثا عن الجهات المتشعبة لنشاط البيروني، وإسهامه في الأدب والعلم معا ذاكراً ما عرف من مؤلفاته بهذا الصدد، ناسيا أن يذكر جهود الذين وضعوا اللبنات لبنة لبنة حتى استوى الصرح على أساس مدعم، وتلك إحدى غرائب التأليف في العالم العربي، بل تزداد هذه الغرابة حين نجد اللاحق يحاول أن يخفي آثار السابق، وقد يضطر إلى ذكره معقبا بما يشبه الانتقاص، ولو ضربت الأمثلة على ما أقول لفاض الكيل.

أعجب بالفكر المخلص ذي الشخصية القوية، والروح الملتهبة، يعتنق فكرة من الأفكار الصحيحة، ويعمل على تحقيقها باذلاً كل جهوده في الدعوة إليها.

تابع الأستاذ قدري حديثه عن الطب والكيمياء والصيدلة والنبات وأثر العرب في إنماء ما يتعلق بها من بحوث، وقد أشار إلى بحث كتبه عن ابن سينا بمجلة الرسالة العدد (٣٦) ذكر فيه ما عثر عليه من اكتشافاته البارزة في الطب والتشريح، وأتبع ذلك بقوله: «إن الأستاذ الدكتور محمد خليل عبدالخالق وكيل كلية الطب بالجامعة المصرية حينئذ قد قرأ مقاله، وعقب عليه باكتشاف جديد لابن سينا، حيث أظهر أنه أول من اكتشف الطفيلية الموجودة في الإنسان المسماة الآن (بالأنكلستوما) وكذلك المرض الناشئ عنها المسمى بالرهقان، وبالرجوع إلى مقال الدكتور عبدالخالق رأيت أن الباحث الجليل قد أثبت النص الدال على ذلك من الفصيل الخاص بالديدان المعوية المسجل في كتابه (القانون في الطب) وقد سمّى ابن سينا هذه الدودة الطفيلية باسم الدودة المستديرة، وهي التي اكتشفها العلامة دوبيني في إيطاليا سنة ١٨٣٨م أي بعد كشف ابن سينا عنها بتسعمئة سنة تقريباً، والشاهد من هذا كله أن العلم حلقات متصلة، وأن الأستاذ قدري قد يسعد بإضافة الجديد إلى مقاله، حين عقب عليه الدكتور محمد خليل عبدالخالق بما أثبت لابن سينا من الفضل الذي سبق به الباحثين في أوربا بتسعة قرون، ولم ينقص من فضل الأستاذ قدري حيث أضاف هذا الاكتشاف لصاحبه، بل زاده رسوخا وأصالة، فعلى الذين يبالغون الآن في إنكار الخطوات الأولى للرواد أن يعلموا أن الحقيقة لابد أن تظهر مهما حيل بينها وبين الظهور.

أما حديث قدري عن جهود العرب في مجال (الفيزياء) فقد كان من التركيز بحيث لا يستنبطه إلا متخصص ممارس إذ أشار في دقة إلى اهتمام اليونان بعلم الحيل، وقد ترجم العرب ما أبدعوه فيه واستنبطوا الجديد من قوانينه، وتابع ذكر المؤلفين العرب من أمثال أبناء موسى بن شاكر مشيرا إلى تقسيمهم لهذا العلم بحثا عن جرّ الأثقال بالقوة اليسيرة وعن آلات الحركات، وصنعة الأواني، واستخراج ثقل الجسم المحمول، وعرج الباحث على جهود البيروني فذكرها في تركيز لا يخفي المبتكر منها، وتتابعت أسماء عبدالقادر الطبري وسند ابن علي والرازي وابن سينا والخيام مسجلاً اعتراف سارطون بأن كتاب ميزان الحكمة لابن سينا هو أكثر الكتب استيفاء لبحوث الميكانيكا، وهو الكتاب الوحيد الذي ظهر في نوعه في القرون الوسطى، وهكذا توالى الحديث عن جهود البوزجاني والخوارزمي والكوهي والفارابي وابن الهيثم وأضرابهم، حتى انتقل الكلام إلى البصريات فاتسع الحديث عن عالمها المعلم ابن الهيثم مسجلا اعتراف الغربيين بجهوده الضخمة، ومحاولة تلخيص ما اهتدى إليه ابن الهيثم في هذا المجال مما يتعسر، وقد أشار الأستاذ قدري إلى جهوده بإيجاز ثم ظهرت كتب خاصة به نشرها الدكتور مصطفى نظيف ولفيف من متخصصي الجامعيين، كما ظهرت كتب مماثلة عن الخوارزمي صاحب كتاب الجبر والمقابلة، وهو كتاب لا يزال يحدث دويه في جامعات الغرب، وقد خصصت قاعات علمية خاصة بالبحث التجريبي تحمل اسم الخوارزمي وسواه من أساطين الفكر العربي، وكان الأولى بجامعاتنا في البلاد العربية أن تخلد ذكرى الأجداد. وعلى طريقة الأستاذ في تلخيص الجهود العربية في علوم الطبيعة، واصل الحديث عن هذه الجهود الخاصة بالرياضيات، وعلم الفلك، وقد كان الأستاذ متفائلا كل التفاؤل حين ختم حديثه الدقيق بقوله(٣).

«يسرنا أن نلمح في هذه الأيام حركة جديدة من جانب الحكومات والمعاهد العربية من شأنها سد النقص الذي لازم نهضتنا الثقافية مدة طويلة، فقد بدأ القائمون بأمر هذه الحكومات والمعاهد يهتمون بالكشف عن تراث الإسلام والعرب، كما بدؤوا يوجهون عنايتهم إلى إحياء بعض الكتب القديمة، والمخطوطات القيمة على أنواعها وتعددها.. وكنا بحاجة إلى القول بأن هذه الحركة لاتزال في أولى مراحلها لم يقطع فيها شوط جدير بالاعتبار، وما نراه من الشروع في الاهتمام بالتراث العربي والإسلامي مما يؤكد أن العرب قد أصبحوا يدركون

أن في بعث ثقافتهم العلمية وإحياء القديم وربطه بالحاضر، غذاء روحيا يسند دعائم المجد العربي. ولم يقتصر الأستاذ قدري على البحوث العلمية في المجلات الرصينة وحدها، بل رأى أن يعيش بعقله في أحداث عصره يسهم برأيه في كل ما يقال عن الحضارة العلمية شرقا وغربا، وحين أتت الحرب العالمية الثانية على المثل الإنسانية في الارتقاء الحضاري كتب بعض الباحثين يقول: إن الحضارة الأوربية ذات عقل، وعلينا أن نسير مع العقل وإن ظهرت السلبيات الكثيرة في نتائج مسيرته، وهو قول فزع منه الأستاذ قدري فألقى محاضرة ببيروت تعصف بهذه الدعوى، ثم نشر مضمونها في مجلة الرسالة تحت عنوان (موقفنا من الحضارة) فعرض للجانب الحسن من جوانب الحضارة المعاصرة حين غزت جميع النواحي في الحياة بحيث أصبحنا لا نعيش إلا في أجواء العلم ولا نسير إلا في طريقه، ولكن ذلك كله قد عاد على الإنسانية بالوبال لأن استغلال العلم بعيداً عن قوى الروح والقلب أنتج هذه الحرب الطاحنة من ورائها تلك الفوضى الخلقية فاستأسدت الغرائز، وأسرفت المطامع فإذا آلة العلم تتجه نحو التدمير والخراب والفتك بحيث أصبحت القوة الغاشمة مقياس تقدم الأمة وعظمتها، ولو تدخلت الروح ومن ورائها القلب لانقلب الوضع فاتجهت آلة العلم نحو البناء والإثمار والخير والكمال، والواقع المشاهد ينطق بأن المدنية الحديثة قد زادت المشاكل تعقيداً والتواءً كما سلبت العالم راحة البال وطمأنينة النفس، وإذن فالعلم وحده لا يكفي لوضع حد لشرور العالم وآلامه، ولا يكفي للخلاص من الصعاب التي سببها، فالواجب أن تقوم حضارة جديدة توفق بين العلم والروح، كما تلائم بين العقل والقلب، ودعا المفكرين إلى الاهتمام بالجانب الروحي، وكان من المناسب أن يذكر رسالة الأدباء في بعث القيم الإنسانية الداعية لهواتف الخير والحق والجمال، ولكن الأستاذ قدري ترك حديث الأديان بالمرة، أتراه ظن أن العقل الأوربي لا يصيخ إليه إذا ارتدى بعباءة الدين، وهبه لم يصخ إليه، فعليه أن يجهر بما يعتقد، وقد قام كبير أساقفة إنجلترا ليؤكد المعنى الذي نسي الأستاذ أن يذكره فما له إذن ينكل عن وجه الصواب.

والأستاذ قدري مؤمن كل الإيمان بدينه وله بحوث شافية تنوه بإنسانية الإسلام وهداه، فلا يظن أنه أغفل توجيه الإسلام متجاهلا، بل إنه عرض في غير هذا المجال كثيرا من الحقائق الكونية في ضوء تعاليم الإسلام فبلغ بذلك مبلغا جيدا في الإقناع والتوجيه، لقد كتب مقالين متكررين بمضمونهما الجوهري في مجلتي الرسالة والثقافة متحدثا عن موقف محمد صلى الله عليه وسلم حين كسفت الشمس يوم وفاة ولده إبراهيم، إذ رأى المسلمون في ذلك كرامة لوالده، فقال قائلهم: إن الشمس قد انكسفت لموته، ولكن الرسول صلى الله عليه وسلم نفى ذلك مقررا أن الشمس والقمر آيتان من آيات الله، وأنهما لا تنكسفان لموت أحد ولا لحياته. وهذا الموقف مجال لعبرة خلقية باهرة تتصل بأدق الشمائل النفسية للرسول، إذ لو كان زعيما يطلب التأييد عن طريق الانتهاز الوصولي، لسكت عن القول، إن لم يسارع إلى تأييده، ولكنه معلم مرشد يهدي إلى الحق وإلى طريق مستقيم. وهذا ما أعجب كل من ألم بهذا الموقف في السيرة المطهرة، وما جعل الأستاذ قدري(٤) طوقان يترك قلم العالم إلى لسان الخطيب فيقول مخاطبا رسول الله صلى الله عليه وسلم: «صلى الله عليك، ففي أحرج المواقف، وفي أدقها، لم تنس رسالتك، ولم تغفل عن الحق الذي أتيت به. وأبيت إلا أن تكون مخلصا لدعوتك، ولحقائق الوجود، وجئت بدستور كوني وضع حدا لسخافات المنجمين وأقوالهم، ولاعتقاد الناس في الظواهر الطبيعية والكونية، وبأن ما يجري في الكون لا يتقيد بأحد، ولا تسير لإرضاء بشر، بل إن

هناك قوانين تسير الطبيعة، وأنظمة تسيطر على حركتها، أوجدها الخالق منذ الأزل، لا تحيد عن الطريق الذي رسمها، وقد نزهها عن الشذوذ والتناقض، والذي لا ريب فيه أن الكون لم يوجد من تلقاء نفسه، إذ لو كان كذلك لما رأينا فيه هذا النظام، وهذا التنسيق، لأن هناك قوة خارقة منظمة لا يحيط بها عقلنا، بل تحيط بنا وبهذا الوجود من جميع نواحيه، فلا تتحرك هباءة في الأرض والسماء من جماد أو نبات أو حيوان أو فلك أو نجم إلا والله هو محركها والمسير لها في دائرة من النواميس تشهد بعظمته وتنطق بكماله».

والأستاذ على إلمام بكتب التراث من فقه وتفسير وحديث، لأن العالم الأصيل يعرف أن بعض معميات الوجود، وأسرار الطبيعة قد وجدت حلولا لها في كتاب الله وسنة رسوله، ومن ثم فقد كتب بحوثا عن كتاب الله وموقفه من العقل، وبحثا شافيا عن الطريقة العلمية في تحري الأحاديث النبوية، ونحن معشر الدارسين لمصطلح الحديث نعرف أسباب هذا التحري فيما وضع من أصول دقيقة تحدد مركز الأثر النبوي صحة وضعفا وانقطاعا واتصالا، أما الأستاذ قدري فقد قرأ كثيرا من كتب المصطلح، وقال عن بعضها مشيراً إلى مؤلَّف القاضي عياض ومثنيا عليه، وناقلا ما ذكره الدكتور أسد رستم بشأنه حين قال: «وعلى الرغم من مرور سبعة قرون فإنه ليس بإمكان رجال التاريخ في أوربا وأمريكا أن يكتبوا أحسن منها - رسالة القاضي - وأن ما جاء فيها من مظاهر الدقة والاستنتاج تحت عنوان: تحري الرواية والمجيء باللفظ، يضاهي أدق ما وضع في الموضوع نفسه في أهم كتب الإفرنج في ألمانيا وفرنسا وانجلترا(٥).

والدكتور أسد رستم باحث مجتهد، وله كتاب عن مصطلح التاريخ أوفى فيه على الغاية، ونقل عنه الأستاذ قدري هذه السطور مضيفا إليها قوله الرائع:(٦) «إن المسلك الذي اتبعه العرب في تنقية الحديث، وتمييز صحيحه عن موضوعه قد أثر إلى حد في أساليب العلماء، إذ أبان لهم أهمية الطرق التي تؤدي إلى الحق، كما أوضح لهم منهاجا دقيقا للسير بموجبه للوصول إلى الحقيقة، وإلى الصحيح من الوقائع والأخبار والأقوال، وكذلك كان للأساليب التي اتبعها علماء الحديث فضل كبير على التاريخ، فأصبحت القواعد التي ساروا عليها في تحري الحقيقة هي المعول عليها لدى المؤرخين المعاصرين ومحل تقديرهم وإعجابهم».

وللأستاذ قدري هيام بتقرير الحقائق تاريخية وعلمية، وقد يكون قوله المنطق الفصل فيما يتصدر للحكم فيه من قضايا، فقد ذكر الأستاذ أحمد أمين في فجر الإسلام(٧) ما فحواه أن اللغة العربية وفت بمتطلبات العصر الجاهلي، إذ كانت في منتهى السعة والدقة فيما يستعمل من ضروريات الحياة، فالإبل خير مأكلهم ومشربهم ومركبهم وعماد حياتهم، لذلك لم يتركوا صغيرة ولا كبيرة تتعلق بها إلا وضعوا لها لفظا أو ألفاظا. فإذا انتقلت من الجمل إلى السفينة رأيت اللغة في غاية القصور فلم يوفوها حقها كما وفوا الجمل، ولم يحصوا كل أجزائها ولم يضعوا اسما لكل نوع من أنواعها».

وهذا كلام لا اعتراض عليه لأن اللغة دليل الحاجة، ولم تكن حاجة الجاهلي إلى السفينة تعدل حاجته إلى الناقة، ولكن الذين يثيرون الغبار في كل مسألة رموا أحمد أمين بالقصور تارة وبالتعصب على الجاهلية تارة أخرى، وذهبوا يسجلون الألفاظ الخاصة بالسفينة في كتب اللغة، وقد فاتهم أن جميع ما ذكروه لا يعدل شيئا بالقياس إلى ما جاء عن الإبل من ألفاظ، وقد شاء الأستاذ قدري أن يحسم النقاش فكتب مقالا تحت عنوان(٨): «الملاحة عند العرب» دون أن يعرض للأسماء الدائرة حولها النقاش فأكد أن القول الصحيح عن الملاحة عند العرب لم يتضح بعد، ولكن المسلم به أن العرب في بدء فتوحاتهم كانوا يخافون البحر ويهابونه، وهم أهل صحراء منقطعون عنه لم يتعودوا رؤيته فكيف بركوبه؟ وذكر موقف عمر بن الخطاب حين حذر عرفجة بن هرثمة لركوبه البحر في غزوة عمان أما بعد الفتوح الإسلامية الأولى وتغير النظرة إلى هول الموج فقد اهتم العرب بالملاحة، وحذوا حذو الرومان في إنشاء السفن، ومهروا مهارة تامة في صناعة الأساطيل، وتم لهم الاستيلاء على كثير من شواطئ البحر الأبيض المتوسط أو بعض شواطئ فرنسا حتى وصل الأسطول الإسلامي في عصر عبدالرحمن الناصر إلى مئة مركب، وكذلك انتشرت أساطيل الموحدين والمرابطين، وحصر ابن خلدون عدد الأساطيل في القرن الخامس والقرن السادس فوجدها تبلغ المئة، وكتب الأستاذ في هذا المجال بحثا مبتكرا لا يغني تلخيص عن قراءة، فذكرنا بما كتبه من قبل عن أحمد بن ماجد(٩) أسد البحر الهائج، وكلامه عن ابن ماجد من أوائل ما كتب في العربية عنه، وما كتب بعده بصدده عيال عليه، وقد قال: إن في الأمة العربية كثيرين من أمثال ابن ماجد أتقنوا الملاحة، ووضعوا عنها كتبا ظلت المصدر الأول للأوربيين حينا من الزمن، لو أحصيتهم لطال بنا القول.

هذه فقر مختارة تدل على نشاط هذا الداعية العلمي الغيور، وتتطلب من عشاق البحث العلمي أن يحرصوا على جمع مقالاته التي لم تنشر في أجزاء متصلة، فهي رائدة في بابها، ولها مكانها الركين لدى الدارسين.

---

(١) مجلة مجمع اللغة العربية بالقاهرة، مارس سنة ١٩٧٢م.
(٢) تراث الإسلام: ترجمة الدكتور الطويل.
(٣) مجلة المقتطف (عدد خاص) ص ١٠٠ سنة ١٩٣٨م.
(٤) مجلة الرسالة ١٩٤٤/١/١٧م.
(٥و٦) مجلة الرسالة العدد ٧٥٧، ١٩٤٨/١/٥م.
(٧) فجر الإسلام للأستاذ أحمد أمين ص ٥٥.
(٨) الرسالة عدد ٣٣٩ - ١٩٤٠/١/١م.
(٩) الرسالة عدد ٩٣ - ١٩٣٥/٤/١٥م.